باستقراء المستقبل . هذا التحول بدأ في العام ١٩٦١ ، يوم انتقل الجنرال ديغول من صفوف الذين ينادون « بالجزائر الفرنسية » الى تزعم المستقلين الفرنسيين المنادين بمنح الجزائر حريتها ولو كان الثمن حربا أهلية في فرنسا نفسها ... او محاولة انقلابية يقوم بها بضعة جنرالات فاشلين .

اذ هنا لا بد ان نلاحظ ان تجربة الجزائر لم تغير رؤيا ديغول بالنسبة الى حريات العالم الثالث وحده ، بل هي غيرت رؤياه ، في صورة جذرية ، الى مجمل وطبيعة العلاقات مع كل المعسكرات في العالم ، وخصوصا الى طبيعة العلاقات مع الولايات المتحدة من جهة ومع سائر أعضاء الاسرة الاوروبية من جهة أخرى .

مع قرار اطلاق رصاصة الرحمة على الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، تبين للجنرال الذي خاض حربين عالميتين ، ان عالما جديدا قد ولد . والعالم الجديد هذا أصبح يقتضي اعادة النظر في بنية العالم القديم كلها ، وبالاخص في كل أخطاء وخطايا العالم القديم الذي كان هو ، في مراحل مختلفة ، واحدا من اركانه .

وانا من الذين يقولون — في كل تواضع — ان تجربة الجزائر ، وليس الواقع الاوروبي الجديد ، كانت وراء معاهدة الصلح الالمانية — الفرنسية التي وقعت في العام ١٩٦٣ ، على الاقل من الناحية النفسية . اذ حيث اثبت شعب صغير أعزل ، مثل الشعب الجزائري ، انه قادر على قهر قوة كبرى مثل فرنسا ، لم يعد من الممكن الاستمرار في اخطاء المتعاليات القديمة ... تلك التي كانت باريس مسؤولة عنها وتلك التي لم تكن .

فالخوف الحقيقي بالنسبة الى ديغول أصبح واحدا : الخوف من ان تظل فرنسا ضعيفة . فاذا تحولت الى قوة فعلية لن تعود في حاجة الى الاعتماد كليا على « المظلة النووية الاميركية » التي كان يقول دائما انه لا يعرف متى تسحب من فوق رأس فرنسا ، ومن هنا أنشأ القوة النووية الضاربة وبدأ في بناء قوة عسكرية قادرة على الاستقلال عن الحلف الاطلسي تماما .

هذا الجنرال المتوسطي كان يعرف جيدا كيف يتطلع حوله : عبر الاطلسي رأى حليفا راغبا في التسلط بينما هو راغب في الاستقلال ... فقام وسافر الى الاتحاد السوفياتي ليقيم اول علاقات خاصة بين البلدين منذ سقوط ثلوج الروسيا على رأس نابوليون . وعبر المتوسط أيضا رأى ان تلك البلدان التي عذبها الاستعمار الفرنسي ذات زمان ، بدأت تعود اليها سواعدها، فانصرف الى تحسين العلاقات بقدر المستطاع مع المغرب العربي ثم مع المشرق العربي ، محاولا ان يفتح لفرنسا صفحة جديدة مكتوبة بحبر المستقبل .

والواقع ان الموقف الفرنسي في حرب حزيران ، كانت قد سبقته اقامة علاقات طبيعية بين باريس والعواصم العربية، بعيدة عن ذكريات الجزائر وبنزرته والسويس.

لكن هل ذهب ديغول الى حد اتخاذ موقف فلسطيني ؟

الجواب يتوقف على كيف نفسر رؤيا الرجل . وانا بين الذين يعتقدون ان اول تمهيد للموقف الفلسطيني الذي أعلنه جيسكار ديستان في الشهر الماضي ، كان اشارة ديغول بعد حرب حزيران أو بالاحرى تفسيره ، لطبيعة اليهود في العالم ، ذلك التفسير الذي اقام عليه حملات اعلامية رهيبة في الغرب .

فقد كان ذلك الكلام ، اول اقرار غربي على هذا المستوى ، بأن ظلما حقيقيا قد الحق بالشعب العربي في فلسطين ، وكانت قيمته ان ديغول هو الذي يقوله كما كانت قيمته في انه يصدر عن رجل يعرف سلفا ما سوف يواجه من حملات .